# الأقليات في السـودان

# مع إشارة للوثنيين والأقباط

**د/ عبده مختار موسى**

أكاديمي وباحث/ السودان

أستاذ مشارك في العلوم السياسية

(فصل في كتاب: "الأقليات الدينية والإثنية بعد الربيع العربي"، دبي: مركز المسبار للدراسات والبحوث (الكتاب رقم ٦٧)، تموز/يوليو ٢٠١٢.)

**مقدمــة:**

إن مسألة "الأقليات وحكومات الإسلاميين" بالنسبة للحالة السودانية تختلف اختلافا كبيرا عن بقية الدول العربية/الإسلامية. ومن الخطأ اختزال موضوع الأقليات في عنوان أو موضوع فرعي sub-theme هو (الوثنيون والأقباط). لأن الأقباط كأقلية لم يتم تمييزهم بالمعيار السياسي في الدولة بينما هم أقلية مندمجة اجتماعيا في المجتمع السوداني. ذلك لأن الأقباط لم يظهروا – أو يقدموا أنفسهم – ككتلة لها نشاطها أو مؤسساتها السياسية الفاعلة التي تميزها بوصفها جماعة لها وزنها وصوتها في المجتمع. فهم يعيشون في السودان كأقلية، متماسكة اجتماعيا، ولكن ليس كلاعب سياسي يمكن الحديث عنه كأقلية تطالب بحقوق سياسية أو مدنية. لأن الأقباط اكتسبوا صفة المواطن السوداني ويحملون الجنسية السودانية منذ أن استقر أجدادهم في السودان قبل عشرات السنين ويتمتعون بكافة حقوق المواطنة. وهناك ملاحظتان بشأنهم في هذا السياق:

**أولاً:** الأقباط، على قلتهم، يتركزون في العاصمة وبعض المدن الكبرى، وهي مراكز حضرية يتوزع فيها الولاء على الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني – أي الانتماء يعبر عن حقيقة أنهم مواطنون في المدن

وليس أقلية إثنية، وبالتالي ليس لهذا الانتماء – على أساس قبطي – أي أثر أو تأثير في ديناميكيات الحراك السياسي في المراكز الحضرية.

**ثانياً:** إن الوجود القبطي في السودان، الذي لا يتجاوز الـ (٧٠٠٠) شخص، ارتبط بوفودهم كتجار وليس لهم أي نشاط سياسي. كما أنهم لم يواجهوا أية مشكلة في التعايش في المجتمع السوداني لأن المجتمع السوداني بطبيعته متسامح وليس به تطرف ديني.

أما **الوثنيون** فهم كتلة كبيرة في الجنوب وجنوب كردفان وجنوب ولاية النيل الأزرق. لكن تشكلت الهوية هنا على أساس عرقي أكثر من قيامها على أساس ديني (وهي **فرضية** سوف تنطلق منها الورقة في هذه الجزئية). وشكلت هذه النقطة أساس الصراع بين هذه المكونات وحكومة البشير. بمعنى آخر: تأثرت مسألة الهوية أو الانتماء بعامل آخر غير عامل الدين وهو العامل العرقي (الإثنية) لكن تلازم ذلك مع تسييس الدين في الصراع بين حكومة البشير/الترابي ضد الحركة الشعبية لتحرير السودان. والملاحظة المهمة هنا أن الوثنيين في الجنوب أكثر من المسيحيين والمسلمين ومع ذلك كان تأثير الدين أكبر في الصراع بين الشمال والجنوب لأن النخبة الجنوبية التي قادت التمرد تدين بالمسيحية والتي من خلالها وجدت تعاطفا ودعما من مجلس الكنائس الأفريقي والعالمي والغرب بصورة عامة.

الوثنيون في السودان لا يتحركون باعتبارهم وثنيين بل على أساس الانتماء العرقي – بأنهم زنوج وأفارقة ومهمشين. ومن ذلك ظهرت مفاهيم مثل "الاستعلاء العرقي" و "الكتلة السوداء" وغيرها. فهذا الانتماء العرقي شكَّل الاحساس بالهوية الواحدة لأقليات جمعت مسلمين ومسيحيين ووثنيين كما هو الحال في جبال النوبة بولاية جنوب كردفان.

سوف تتناول هذه الدراسة هذه الأقليات (الوثنية) في ثلاثة محاور هي: الجنوب، جبال النُّوبة والأقباط.

**مفهوم الأقليات تطبيقا على الحالة السودانية:**

أرتبط الوجود الوثني في السودان بالعناصر غير العربية – أي الزنجية/الأفريقية. لكن أستثناءً – تاريخيا – ارتبطت الوثنية بوجود السكان الأصليين indigenous people في هذا الجزء من العالم قبل مجئ الإسلام والهجرات العربية مثل النُّوبيينthe Nubians في أقصى الشمال (ولهم امتداد في صعيد

مصر) والنوبة the Nuba في جبال النوبة بجنوب كردفان والأنقسنا والفونج إلى الوسط وشرق الوسط النيلي، وقبائل الجنوب وقبائل أفريقية كثيرة انتشرت من دول غرب أفريقيا في دارفور (غرب السودان) وكردفان (الغرب الأوسط). وهذا المنطق التاريخي هو الذي ظل يستند إليه الجنوبيون بأن "العرب أقلية وافدة".[1] ففي السودان كانت الوثنية ثم جاءت المسيحية ثم تلاها الإسلام.

إن أكبر مشكلة تواجه أي باحث يسعى للتدقيق أو الاستوثاق من نسبة الوثنيين إلى المسلمين والمسيحيين في الجنوب وجبال النوبة هي عدم توافر إحصاءات دقيقية وجديدة لهذه المكونات. صحيح أن معظم السودان الشمالي تحول إلى الإسلام واستعرب مع هذا التحول، لكن الجنوب الذي يشكل قرابة ربع السكان وجيوب أخرى في الشمال، مثل النوبة، كانت فيها الوثنية هي معتقد الأغلبية، غير أن آخر احصائية متوافرة في هذا السياق ترجع إلى العام 1981. تقول بعض الاحصائيات الواردة في الكتاب السنوي للتبشير عام ١٩٨١ الصادر عن مجلس الكنائس العالمي أن ٦٥% من سكان الجنوب يدينون بالديانات المحلية، و ١٨% مسيحيين، و١٧% مسلمين. وأن هناك حوالي (٤٠٠) ألف يتبعون للمذهب الكاثوليكي و (١٠٠) ألف يتبعون المذاهب البروتستانتية. لم تتم أية احصائيات منذ ذلك العام بسبب الحرب في الجنوب التي اندلعت منذ العام ١٩٨٣ ولم تتوقف إلا باتفاقية السلام الشامل بين الشمال والجنوب في نيفاشا (كينيا) في ٩ يناير ٢٠٠٥ والتي انتهت باستفتاء أدى إلى انفصال الجنوب في عام ٢٠١١ كما أن استمرار الحرب الأهلية في الجنوب ثم منطقة النوبة بكردفان حالت دون خضوع هذه المناطق لاحصائية سكانية تعطي أرقاما حقيقية حول نسبة الوثنيين في السودان أو في الجنوب على الأقل.[2]

## أولاً: الوثنية في الجنوب وجبال النوبة:

### ١. الوثنية في جنوب السودان:

---

[1] يقول علماء الأنثروبولوجيا أن كلمة "السودان" تعني أرض أو (بلاد السود) Land of the black people.
وأنها تشمل الحزام الأسود الذي يمتد من السنفال في غرب أفريقيا حتى أثيوبيا. وأن السودان الحالي كان يسمى السودان النيلي والسودان الشرقي.

[2] عبده مختار موسى، مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ص ٩٥.

يختزل الجنوبيون الهوية العربية الإسلامية في أقلية وافدة تم استيعابها في المجتمع السوداني التقليدي مع تمتعهم بمكانة متميزة واضحة. إن ذلك يمكن أن يُفسِّر وبوضوح حقيقة أنه برغم التقدم النشط في الاستعراب والأسلمة عند دخول الإسلام، إلا أن تلك المناطق ظلت في موقف حساس بين تمسكها العاطفي، بشخصيتها الأصلية بكبرياء، وبين تبنيها العملي للثقافة ووجهات النظر السياسية العربية."[٣] ويرى فرانسيس دينج (كاتب وسياسي جنوبي) أنه حتى المجموعات الشمالية التي كانت نتاجاً للاستعراب اكتسبت خصائص وسمات أفريقية بسبب تداخل الجنوب مع الأقاليم الشمالية. وأن لعملية جلب الإماء (المسترقات) من الجنوب – الذي تواصل بدون انقطاع لقرون – قدراً من التجانس المزيَّف غير الحقيقي بين كل أولئك النوبيين.[٤]

يرى بعض الباحثين أن العرب ليسوا السكان الأصليين في السودان، وكذلك اللغة العربية – مع أن الثقافة الإسلامية–العربية اكتسبت السيادة فيما بعد. وهذا يرجع إلى العصر الذي عاشت فيه ثلاث ممالك مسيحية في وادي النيل. تغذى سكان السودان بنفوذ ديني ولغوي واجتماعي سياسي متنوع من النوبيين، شمال أفريقيا والبحر المتوسط وشمال شرق أفريقيا وغرب آسيا. جاء أثر المسيحية القبطية واليهودية من مصر وإثيوبيا ودول البحر المتوسط. جاء التأثير اليوناني الروماني واللغة والثقافة السامية من إثيوبيا الأكسومية، وشبه الجزيرة العربية، تسربت لغات روما واليونان إلى الممالك السودانية المسيحية وتفاعلت مع الثقافات المحلية، انتشرت عبر الزمان ... والمكان ... وأخيراً ساهمت في تشكيل هذا النسيج الإثني المعقد.[٥]

يقع جنوب السودان جنوب خط العرض ١٠° وشمال بحيرة ألبرت في يوغندا. وتبلغ مساحة الإقليم الجنوبي ٢٥٠٠٠٠ ميل مربع – أي ربع مساحة السودان. ويرى المؤرخون أن القبائل الزنجية في جنوب السودان لم تكن جزءً من بلاد السودان الشرقي لكنها أصبحت جزء منه بعد الغزو التركي/المصري في عام ١٨٢١م[٦]

---

[٣] فرانسيس دينج، **صراع الرؤى: نزاع الهويات في السودان**، ترجمة عوض حسن، القاهرة: مركز الدراسات السودانية، الخرطوم: مركز الدراسات السودانية، ١٩٩٩، ص ٤٤.

[4] المصدر نفسه، ص ٤٤

[٥] Sayyid Hamid Hurriez, Ethnic Culture and National Identity in the Sudan: In: "Ethnicity, Conflict and National Integration in the Sudan," Khartoum: the Institute of Afro-Asian Studies, University of Khartoum, 1989, pp. 80 – 81.

[6] Muhammad Omer Beshier, The Southern Sudan: Background to Conflict, Khartoum University Press, Khartoum, 1970, p. 2.

حدود الإقليم الجنوبي لم يتم رسمها على أساس عرقي، ولم يراع الإستعمار التركيبة الأنثروبولوجية لشعوب هذا الجزء من القارة. بعض قبائل جنوب السودان مثل الأزاندي والأشولي واللاتوكا والتركاكا والأنواك تتحرك عبر الحدود إلى الدول المجاورة. كذلك بعض قبائل الجنوب في شمال ولاية بحر الغزال وشمال ولاية أعالي النيل تتحرك إلى شمال خط العرض ١٠.[٧]

معظم دارسي جنوب السودان يميزون بين ثلاثة تكوينات جنوبية على أساس معايير اللغة والثقافة ومصادر الهجرة: الأولى، هي السودانية (Sudanic) وتضم قبائل مثل الزاندي والمورو والبونجو؛ المجموعة الثانية هي النيلية الحامية (Nilo-hamitic) وتضم قبائل مثل الباريا والكاكوا، والفاجلو، والتبوسا؛ والمجموعة الثالثة هي النيلية (Nilotic) وتضم الدينكا والنوير والشلك والأنواك.[٨]

معظم قبائل جنوب السودان لم تجد أي إهتمام من الممالك النصرانية القديمة كممالك النوبة ونبتة وكوش، ولا من الممالك الإسلامية لمملكتي الفونج والفور. أما حركة الإمام المهدي فقد انشغلت بالتوسع واستقرار الدولة في الشمال، ولذلك كانت تعيش قبائل الجنوب في حالة فوضى(anarchy) وانعدام السلطان. وفي عام ١٨٤٦م دخلت ارساليات التنصير جنوب السودان وركزت في عملية بناء الكنائس ومحاربة الإسلام وفصل الشمال.[٩]

قاوم النيليون كل أشكال النفوذ الأجنبي بما فيها الإسلام مثل مقاومة الشلك للإدارة المصرية والمهدية. وباستثناء الشلك والأزاندي كل قبائل الجنوب لم تعرف النظام أو السلطة السياسية. وقد شكلت الشعوب النيلية الرعوية مثالاً حياً للعزلة السياسية التي ميزت مجتمعات جنوب السودان قبل أن يتم افتتاحه ابتداءً من العام ١٨٤٠م. وكلما ذهبنا جنوباً كانت العزلة ليست جغرافية فقط بل ثقافية أيضاً.[١٠]

---

7 عبده مختار موسى، مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ص ٥٤

8 المصدر نفسه، ص ٥٨.

9 المصدر نفسه، ص ٥٨.

10 Lilian Passmore Sanderson & Neville Sanderson: Education, Religion and Politics in Southern Sudan (1899 – 1964), Ithaca Press, 1981, p. 7

وعلى العكس من شمال السودان نجد الجنوب متنوع ثقافياً بدرجة كبيرة حيث صنف الأنثروبولوجيون سكان جنوب السودان على أساس اللغة، والشكل أو الملامح (physical type) والخلفية التاريخية إلى ثلاث مجموعات رئيسية:[١١]

**أولاً: النيليون:** (the Nilotics) تشمل هذه المجموعة الدينكا والنوير والشلك والأنواك. ويعيش معظمهم في بحر الغزال وأعالي النيل. وتضم كل قبيلة مجموعة من القبائل الفرعية. وهم زراعيون ويملكون الماشية بحسب البيئة. الماشية بالنسبة لهم لا تزودهم باللبن والطاقة وجلود للمساكن فقط، بل أيضاً يدفعونها مهراً للزواج، وهي تشكل وسيط من خلاله تنشأ العلاقات بالأرواح وبأشباح أجدادهم.[٢٣] وبينما يُنظَر للدينكا باعتبارهم القبيلة الأكثر تطوراً نسبياً، نجد أن النوير يشتهرون بأنهم شديدي المراس. أما معظم الأنواك فيعيشون في أثيوبيا.

**ثانياً: النيليون الحاميون:** تضم هذه المجموعة المورلي، ديدنجا، بويا، توبوسا، واللاتوكا. يعيش معظمهم في الاستوائية كما يعيش بعضهم في يوغندا وكينيا.

**ثالثاً: القبائل السودانية:** تشمل قبائل صغيرة كثيرة تعيش في الأجزاء الغربية والجنوبية الغربية للجنوب أهمها الأزاندي. أما القبائل الأخرى مثل الباري،المنداري، نيانجوارا، فاجولو، مورو ولولوبا فهي خليط من كل المجموعات الثلاث السابق ذكرها. لا توجد قبيلة واحدة منفردة يمكن أن تشكل مركزاً جاذباً يستوعب المجموعات الأخرى أو يهيمن عليها أو يمتصها.

ليس كل هذه القبائل أصيلة في الجنوب، بعضها وفد من مناطق أخرى. مثلاً جاء الشلك من شرق بحيرة فكتوريا، ربما في نهاية القرن الخامس عشر. هناك اعتقاد أن الدينكا جاؤوا من البحيرات العظمى في شرق أفريقيا بينما وفد الأزاندي من أفريقيا الوسطى في القرن التاسع عشر، وجاءت القبائل السودانية من بحيرة تشاد في القرن السابع عشر. لذلك لا يحق لهذه القبائل الادعاء بأنها من السكان الأصليين أكثر من العرب الذين جاؤوا للشمال.

[11] Lilian Passmore Sanderson, Ibid., p. 7.

من أكبر القبائل الجنوبية، على سبيل المثال، نجد الدينكا (من أكبر القبائل في السودان حيث يبلغ عددهم قرابة الثلاثة مليون نسمة)، النوير (قرابة المليون نسمة)، الزاندي (تنتشر في أربع دول أفريقية هي: السودان، نيجيريا، إفريقيا الوسطى والكونغو)، الشُّلُك (يزعمون أنهم جاؤا من البحيرات)، الباري(ذات الأصول النيلية–الحامية والذين يسكنون جنوب غرب إثيوبيا)، المورلي (تضاربت الآراء حول أصولهم، بين من يقول أنهم من كينيا ورأي آخر يقول أنهم من يوغندا)، وهناك الأنواك، والأشولي والمابان والمورو والدادينجا واللاتوكا والبلندا وأبو كايا والمادي والتابوسا والبوايا وغيرهم.[١٢]

**خارطة توضح قبائل جنب السودان**

هناك أكثر من ١٢ لغة رئيسية يتم التخاطب بها في الجنوب لكن ليس هناك لغة واحدة غالبة أو سائدة (Lingua Franca). توجد لغة عربية لكنها مخلوطة باللهجات المحلية وهي المعروفة بـ (عربي

[١٢] للمزيد من التفاصيل حول قبائل جنوب السودان أنظر: أحمد مكي محمد، التركيبة الجغرافية والسكانية في جنوب السودان، الخرطوم: مركز دراسات الشرق الأوسط وإفريقيا، الملف الدوري، سبتمبر/أيلول–أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٣، ص ١٩.

جوبا) وهي اللغة الوحيدة التي تتحدث بها معظم قبائل الجنوب لأن اللغة الإنجليزية يتحدث بها المتعلمون فقط. معظم الوثنيون يؤمنون بوجود إله أعلى (High God) والذي يختلف اسمه من قبيلة إلى أخرى لكن تلعب روح الجد دور أكبر في حياة الجنوبي الوثني أكثر من الإله العظيم أو الأعلى. ويسود اعتقاد بأن روح الأجداد تتقمصها الأجيال جيل بعد آخر. وتتمثل في صناع المطر والزعماء الروحيين والذين تجتمع عندهم السلطة الزمنية والروحية معاً. الأديان الوثنية هي أديان قبائل والتالي لا توحد بين القبائل.[١٣]

تعتقد الانتلجنتسيا الجنوبية أن سياسة فرَّق وأحكم (divide and rule) التي لها تاريخ طويل في السودان والتي استخدمها الأوروبيون والعرب على حد سواء لتدمير المجتمعات الجنوبية وكسر مقاومتها قد استخدمتها أيضاً حكومة الجبهة الإسلامية القومية بصورة أكثر تنظيماً وأشد قسوة مست كل مستويات النظام الاجتماعي. لقد شكلت حكومة الجبهة الإسلامية مليشيات مسلحة أحدثت بها الانقسام وسط الجنوبيين ونشرت بينهم السلاح والفتنة وقد وجدت هذه السياسات التربة الخصبة في المجتمع الجنوبي المنقسم أصلاً بالعصبية العرقية (ethnocentrism).[١٤] ويرون أن الجبهة الإسلامية تمارس ذات التكتيكات في جبال النوبة مثل التطهير العرقي (ethnic cleansing) وتفكيك الأسرة بعزل الزوج عن زوجته وكذلك الأبناء وإضعاف الترابط الديني والأسري والعشائري (inter-clan) والقبلي (inter-tribal) تمهيداً لتدمير التماسك الاجتماعي (social cohesion) وتذويب الهوية.[١٥]

كذلك ما زال العقل والوجدان الجنوبي مشحون بمرارات الماضي. فبين الحين والآخر يردد الجنوبيون قصص تحطيم الكنائس منذ الستينات من القرن العشرين. ويقولون أنه حتى في الخرطوم "تمت مصادرة الكثير من المباني الكنسية وتحويلها لصالح الجبهة الإسلامية. ولم تسلم حتى الكنائس المشيدة بمواد محلية في أطراف العاصمة ومعسكرات النازحين."[١٦]

---

[١٣] عبد العزيز محمد موسى اسحاق، المرجع السابق، مسح ميداني ومقابلات شخصية في ولاية أعالي النيل بجنوب السودان، مارس/أذار٢٠٠٥، ص ٢٢.

[١٤] Marc Nickel, "*God Has Not Forgotten Us*: *Christian Identities and Ethnic Survival in the Sudan"*, a paper prepared for "Religion, Nationalism and Peace in Sudan", (organized by the United States Institute of Peace on the 16th and 17th September 1997, p. 10 في: عبده مختار موسى، مسألة الجنوب...، المصدر السابق، ص ١١٢.

[15] Ibid., p. 10.

[16] Ibid., p. 11.

ترى النخبة الجنوبية في الاعتداء على الكنائس اعتداء على التماسك والنظام الاجتماعي والتربية الدينية. وعلى الرغم من هذه "الاعتداءات" ظل المجتمع الديني الجنوبي (المسيحي) في السودان يعيد بناء نفسه. كذلك يشير الباحثون إلى قصص الاختطاف والاعتقال والتعذيب والقتل التي يتعرض لها القساوسة وغيرهم من الزعامات الدينية في الشمال والجنوب. ويرون أن هذا الكبت والقمع لم يزد قيادات الديني المسيحي إلا عزيمة وإصراراً على تكثيف التزامهم الديني وفضَّلوا التضحية بأرواحهم من أجل الدين. كل ذلك كان في مختلف الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال؛ غير أن نظام الجبهة الإسلامية القومية هو الأشد بطشاً وتنكيلاً. ويشير هؤلاء إلى عمليات الخطف الجماعي (wholesale abduction) وفرض الأسلمة بالقوة وكذلك إجبار الأطفال على التجنيد العسكري حيث يتم القبض على الأطفال في الجنوب وشوارع مدن الشمال لاستخدامهم – بعد فترة "تطهير ثقافي" – كمجاهدين ضد أهليهم. وهذا اعتداء ليس على الجيل الحالي بل على مجمل النسيج الإنساني في المستقبل. [١٧]

أما حكومة الإنقاذ (أو الجبهة الإسلامية القومية) فقد كانت تنفي باستمرار هذا التهم وتصفها بأنها إدعاءات لا أساس لها من الصحة وتقدم الكثير من الأمثلة التي تفيد بأنها تعزز التعايش السلمي، وقد أشار المبحث السابق لهذه الأمثلة. يبدو أن اختلاف الأديان لا يشكل مشكلة بين السودانيين، غير أن تسييس الدين هو الذي يفجر المشكلات والتوترات بين الطرفين ويعمل على توليد الحساسيات وتعقيد المشكلة بل وتدويلها.

من الناحية الأخرى يتهم الجنوبيون الجبهة الإسلامية القومية بأنها تفسر الدين تفسيراً ضيقاً. فهم يرون أن الجبهة الإسلامية القومية قد حولت الحوار الديني إلى قمع سياسي وعسكري. وأن هذا المسلك عزز تمحور الهوية الجنوبية حول الدين المسيحي، وهي العملية التي بدأت منذ أكثر من قرن. بل أن كثير من الجنوبيين يعتقدون في شرعية دينهم وأسبقيته على الإسلام في السودان مشيرين إلى وجوده وتواصله قبل الإسلام متمثلاً في مملكة النوبة المسيحية، وبدأت المسيحية تزدهر في السودان منذ القرن السادس الميلادي. وأن المسيحية اليوم في السودان بالنسبة لهم هي إعادة إحياء لهذا التراث الديني القديم. وبهذا – في نظرهم –

[17] Ibid., p. 11, p. 24.

الثقافة و الدين هما نسيج واحد. وقد أسست بذلك لقاعدة صلبة للهوية الإثنية والثقافية. وقد ظهرت الكنيسة في القرن العشرين كعامل توحيد قوي بين الطبقة الجنوبية المتعلمة وتبني قاعدة أخلاقية صلبة للمستقبل.[١٨]

ومن جانب ديني وأيديولوجي يبدو أن التصورات التي تحملها العقلية السياسية للنخبة الجنوبية قد تأسست على أن الحكومة المركزية في الشمال وبتوجهها الإسلامي تسعى لإقامة مجتمع إسلامي توحيدي متجانس "monolithic and homogeneous society".[١٩]

نجحت الكنيسة في تدويل مشكلة الجنوب بصورة حاسمة. فبعثت دعاتها إلى كل أنحاء أوروبا الغربية منددين بسياسات النظام الحاكم في السودان حيال الجنوب. وزودت الكنيسة الجنوبيين "بالمبادئ والقيم التي استطاعوا بها تجاوز القبلية وتوحدوا لمقاومة الشمال (المسلم). أي أنها أعطتهم الآيديولوجيا العدائية في مواجهة سياسات الحكومة الرامية للأسلمة".[٢٠] واستقطب المسيحيون في الجنوب الوثنيين من مدخل الظلم والتهميش. وبذات المدخل المزدوج – المدخل الديني ومدخل الظلم والتهميش – استدر الجنوبيون عطف الرأي العام العالمي لدعم التمرد الجنوبي. فالجنوبيون أصبحوا الأقرب للوجدان الغربي من حيث الديانة. وكذلك لامس الجانب الإنساني (الظلم والضطهاد) قلب الغرب حيث يشكل هذا الجانب أحد الأجندة الأساسية لدى العديد من المنظمات التبشيرية في الغرب. فتحرك الغرب وعلى رأسه أمريكا – بمنظماته وجماعاته وإعلامه وحكوماته – لدعم التمرد في جنوب السودان حتى أصبح له جيش حديث التسليح. فمن الملاحَظ أنه في بداية تسعينات القرن العشرين زادت القدرة العسكرية للتمرد بدرجة كبيرة إضافة إلى استقطابه للعنصر الزنجي (وجزئياً غير المسلم) في منطقة جنوب النيل الأزرق وجبال النوبة بجنوب كردفان. ولم تستطع الحكومة صد الزحف العسكري للتمرد تجاه الشمال إلا بعد أن لجأت إلى تجييش الشعب على أساس الدين. فارتبط الأمر بالجهاد والاستشهاد وقوات الدفاع الشعبي. وبعمليات (صيف العبور ١٩٩٢) استطاعت الحكومة أن توقف زحف المتمردين تجاه مدن الشمال وأن تستعيد الميزان العسكري.

---

[18] Ibid., p. 41.

[19] Robert O. Collins, "Africans, Arabs and Islamists: form the Conference Table to the Battlefield in the Sudan" a paper presented at: the Fourth Triennial Meeting of the International Sudanese Studies Association on 12 – 14 June 1997. في: عبده مختار، المصدر السابق، ص ١١٣

[20] Joseph Oduho and Willian Deng, The Problem of the Southern Sudan, London, Oxford University Press, 1963, pp. 85-60.

هكذا شكل الدين عنصراً مهماً في مسألة الجنوب من حيث الهوية والتسييس والبعد الخارجي – الإقليمي والدولي – حيث كان مدخلاً لدعم التمرد الجنوبي سياسياً وعسكرياً وإعلامياً ومادياً. فالجنوب السوداني موحد حول ثقافات (أفريقانية) واعتقادات وتواريخ مشتركة تعبئه وتحرك أعضاءه لتحقيق أهداف سياسية. وهذا يشكل أحد الجوانب المهمة في إشكالية علاقة الجنوب بالشمال.

طبقاً لهذه المقولة الأخيرة فإن الإثنية المسيسة عبارة عن "جماعة يتوافر لها إحساس خاص بالتضامن، ولديها أيضاً إدراك لوجودها وخصوصيتها، كما تمتلك شعوراً بالاعتزاز بالذات ومجموعة من القيم والرموز المشتركة، وهدفها كمجموعة إثنية له طابع سياسي ويدور حول الدولة."[24] وتتراوح أهداف الإثنية المسيسة ما بين الانفصال أو الحكم الذاتي (جنوب السودان) أو المطالبة بتحسين أوضاعها العامة ضمن إطار الدولة وشرعيتها (النوبة والبجا في وسط وشرق السودان).

هنا يمكن القول إن جنوب السودان حالة معقدة؛ فهو تتقاطع فيه معظم هذه الأنواع من الأقليات مقروناً معها إثنيات مسيسة يجمعها موقف موحد نحو الشمال (المركز) وتسعى لتحقيق مصالح اقتصادية مشتركة. ففي داخل الإطار الجنوبي هنالك أيضاً أقليات لغوية وهناك أقليات قبلية مقابل جماعات عرقية كبيرة مثل الدينكا.

إن المشكلة الإثنية لا تنحصر في الدول المتخلفة فعلى الرغم من الحداثة فإن التعدد الإثني ظاهرة عالمية. وهي – عدا بعض الاستثناءات – السمة المميزة لدول العالم.[٢١] وفي سياق تصعيدها لمطالبها قد تتسبب الأقليات في أشكال من العنف السياسي وتهدد الوحدة الوطنية واستقرار الأوضاع الداخلية للدولة.

في حالة السودان فإن الموضوع الخاص بالهوية يتمحور حول الإثنية وليس الأقلية؛ لأن جنوب السودان يشكل نسبة كبيرة – ربع السودان – حجماً وما يقارب الثلث (٣٠%) سكاناً. بل نجد في طرح الحركة الشعبية لتحرير السودان ما يشير إلى تجاوز الجنوب لحدود الجغرافيا من الناحية العرقية لتضم الهوية الأفريقية (أي غير العربية) جماعات إثنية أخرى تلتقي في هوية (كبرى) واحدة مع الجنوبيين في عدة مناطق في السودان مثل النوبة في ولاية جنوب كردفان بوسط السودان، والأنقسنا في جنوب شرق السودان الشمالي

---

[21] نيتين عبد المنعم مسعد، الأقليات والاستقرار السياسي في الوطن العربي: أطروحة دكتوراة، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٨٧، ص ٧،

والقبائل الأفريقية والزنجية في غرب السودان مثل الفور الزغاوة والمساليت والبرتي والتنجر والتامة والبرقو والبرنو والداجو والفلاتة وغيرها. فتتأرجح النسبة بين التساوي أو ربما رجحانها لصالح الجماعات ذات الأصل والهوية غير العربية والتي يشكل الجنوبيون أغلبها كماً وكذلك أعلاها صوتاً في طرح مسألة الهوية كمجموعة عرقية متميزة عن الهوية الرئيسية المطروحة رسمياً في السودان والمتمركزة حول الدين الإسلامي والثقافة العربية.

وقد قسمت الدراسات العلمية سكان السودان إلى مجموعات إثنية كل منها تشكل نسبة محددة كما يلي:[٢٢]

| المجموعة العرقية | نسبتها إلى إجمالي السكان |
|---|---|
| العرب | %٣٩ |
| الجنوبيون | %٣٠ |
| مجموعة الغرب (الأفارقة) | %١٣ |
| النوبة (جنوب كردفان) | %٦ |
| البجا (شرق السودان) | %٦ |
| النوبيون (أقصى شمال السودان) | %٣ |
| مجموعات متنوعة أخرى وأجانب | %٣ |
| | %١٠٠ |

[22] عبده مختار موسى، المصدر السابق، ص ١٣٤.

لكن قد يصدق القول أيضاً إن التنوع اللغوي أو الديني أو العرقي أو القومي قد لا يشكل في حد ذاته خطراً على الاستقرار السياسي للدولة المعنية، إنما تسييس التنوع هو الذي يؤدي إلى ذلك. وهذا هو الطابع السائد في معظم دول العالم الثالث، والسودان ليس استثناءً.

## ٢. النُّوبة:

"النوبة" قبيلة أفريقية/زنجية، أي غير عربية، تسكن في منطقة (جبال النوبة) the Nuba Mountains بولاية جنوب كردفان بوسط السودان (حوالي ٥٠٠ كلم جنوب غرب الخرطوم) بين خطي الطول (٢٩-٣١) درجة شرقاً، وخطي العرض (١٠ – ١٢,٥) درجة شمالاً في مساحة تُقدّر بحوالي ثلاثين ألف ميل مربع – أي ما يساوي مساحة اسكتلندا تقريباً.[٢٣] وقد أُطلق اسم الجبال على كل المنطقة لوجود سلسلة من الجبال والتلال والهضاب بارتفاعات متفاوتة يصل بعضها إلى خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر ويُقال أن عددها تسع وتسعون جبلاً. وتُحَد جبال النوبة بلاد الشُّلك في أعالي النيل وبعض مناطق بحرالغزال (وهما الآن الجزء الشمالي لدولة الجنوب التي استقلت عن الشمال في يناير ٢٠١١)؛ وغربا تُحد بدار المسيرية المتاخمة لدارفور، وشمالاً تُحد بولاية شمال كردفان، وشرقا بالنيل الأبيض.[٢٤]

يشير الاحصاء السكاني الأول للسودان (١٩٥٥ – ١٩٥٦) إلى أن سكان جبال النوبة كانوا (٥٧٢) ألف نسمة – أي حوالي ٦% من سكان السودان آنذاك (١٠ مليون نسمة).[٢٥] وكان ذلك العدد يشكل ٢٩% من سكان مديرية كردفان (التي تم إعادة تقسيمها إلى ولايتي شمال وجنوب كردفان في آخر نظام فيدرالي ١٩٩١ والذي تم تعديله في عام ١٩٩٤). غير أن بعض الاحصائيات الحديثة نسبيا تشير إلى أن عددهم قد اقترب من المليون ونصف المليون نسمة، ٤٥% منهم لم تيجاوز سن الـ ١٥ عاماً.[٢٦] ويرى بعض الباحثين أن التشكيل الرئيسي لقبائل المنطقة يضم ثلاث مجموعات كبيرة في مقدمتها النوبة وهي أكبر مجموعات المنطقة (٩٠% من سكانها)، تليها القبائل العربية وتشمل الحوازمة والمسيرية والبديرية وكنانة وأولاد غبوش وأولاد

---

23 محمد هارون كافي، جبال النوبة: السلام والتنمية، ١٩٩٩، ص ٣ في: جلال تاور كافي، نزاع جبال النوبة (سلسلة قضايا استراتيجية، ١٠)، الخرطوم: مركز دراسات الشرق الأوسط وأفريقيا، ٢٠٠٤، ص٤.

24 للمزيد من التفاصيل حول المعلومات الأساسية عن منطقة جبال النوبة أنظر: خضر محمود بابكر، هجرة سكان جبال النوبة إلى حواضر الولاية الشمالية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخرطوم، ١٩٩٤؛ وكذلك ، أنظر:
G. W. Bell Shaibun Gold, Sudan Notes and Records (research journal, published by the University of Khartoum), 1937, p. 127.

25 جلال تاور كافي، المصدر السابق، ص ٦.

26 محمد سليمان محمد، السودان: حروب الموارد والهوية، الخرطوم: دار عزة للنشر،٢٠٠٦ ، ص ٢٠٥.

حميد. ومن أكبر قبائل النوبة: المورو والكواليب وأطورو وتيرا وكرنقو...[٢٧] وتتحدث أكثر من خمسين لغة، وجعلت الطبيعة الجبلية القاسية كل مجموعة تنعزل في جبال وتمارس الزراعة في سفوح الجبال وقد كانت بعض قبائل النوبة عراة حتى ستينيات القرن العشرين تقريباً.[٢٨]

قبائل النوبة في الأصل وثنية تحكمها المعتقدات التقليدية (مثل الكجور) فأصبحت فيما بعد ميدان للمنافسة بين المسيحية والإسلام. وكان جيثلان مدير مديرية كردفان في عهد الاستعمار البريطاني (١٨٨٩–١٩٥٦) وضمن سياسة النوبة Nuba Policy (١٩٢٠ – ١٩٤٥) يرى أن "واجبه حماية النوبة من الأثر السئ للحضارة العربية"[٢٩]، وكان يبذل جهده للقضاء على أي أثر للعروبة في جبال النوبة ويعبر عن رأيه ذلك بقوله: "to get rid of all traces of Arab domination at once and at any cost" وكان أول ما فكر فيه لتحقيق هذه الأهداف هو التبشير المسيحي القائم على التعليم الكنسي عبر الإرساليات إذ لم تكن في المنطقة أية مدرسة آنذاك. وقد حث مدير مديرية جبال النوبة (نورث كوت) عام ١٩١٩ الحكومة على نشر المسيحية وسط الأقوام المتخلفين – على حد تعبيره – باعتبار المسيحية مصدراً للتنوير الحقيقي.[٣٠] وكان السكرتير الإداري لإرسالية السودان المتحدة (C.U.M) والتي كانت تعمل في السودان منذ عام ١٩١٢، قد خاطب الحكومة آنذاك مبديا رغبة الإرسالية في التوسع في نشاطها التعليمي إلى جانب العمل التبشيري في المناطق الوثنية وذلك عام ١٩٢٨، على أن يقوم سكرتير التعليم بالإرسالية ببناء المدارس وتقوم الإرسالية بتوفير المعلمين والإدارة ويكون على جانب الحكومة مهمة الاستشارة والنصح والتفتيش. واقترحت الإرسالية في نفس الخطاب أن تُستخدم الحروف الرومانية في التدريس باللهجات المحلية بمثل ما كان سائداً في الجنوب.[٣١] وقد انتشرت المسيحية لكن في مناطق محدودة مثل مناطق هيبان والمورو والكواليب وأطورو، بينما بدأ الإسلام، ومعه اللغة العربية، في الانتشار في مناطق أوسع.

---

27 جلال تاور، المصدرالسابق، ص ٧.

28 من مناطق التعري "كاونجارو" حيث كان سكان كاو مثلا يعيشون عراة وكان ذلك يعتبر ضمن ثقافتهم حيث يعتقدون أن من يرتدي ملابس يسعى لإخفاء عيب خلقي في جسده. أما في جنوب السودان فهذه الظاهرة أكبر، لكنها الآن اندثرت أيضاً.

29 صديق عطا المنان التوم، التعليم الديني في جبال النوبة، بحث ماجستير، الخرطوم: جامعة أفريقيا العالمية، في جلال تاور، المصدر السابق، ص ١١

30 مديرية جبال النوبة أُنشئت في عام ١٩٤١ وضُمَّت لمديرية كردفان عام ١٩٢٨. أنظر: عطا محمد أحمد كنقول،الإسلام والتبشير المسيحي في جبال النوبة (١٩٣٢ – ١٩٥٢) بحث ماجستير، جامعة امدرمان الإسلامية، الخرطوم، ص ١٦٣.

31 كمال عثمان صالح، التبشير والسياسة الاستعمارية في جبال النوبة، في: جلال تاور، المصدر السابق، ص ١٢

وقد حظيت منطقة جبال النوبة باهتمام عالمي من الباحثين وطلاب العلم وخاصة في مجال اللغويات والفنون والثقافة ولا سيما الأوربيين منهم بسبب التنوع في اللغات المحلية السائدة في المنطقة وارتباط بعضها بلغات أخرى في السودان أو أفريقيا كما يدور بحث متصل لتحديد أصل أهل المنطقة ما يزال مستمراً وخاصة صلة قبائل النوبة في الجبال بالنوبا (النوبيين) في شمال السودان وأيهما هاجر إلى الموطن الآخر وصلة ثقافات النوبة الحاليين بالحضارات القديمة فضلاً عن أنها تقع ضمن الحزام الذي يمتد من أثيوبيا إلى أفريقيا الوسطى عبر الأنقسنا والذي تتبناه الكنيسة لوقف المد العربي والإسلامي إلى داخل القارة الأفريقية.[٣٢] ويدور صراع حضاري خفي بين الإسلام والمسيحية من جانب، والأفريقانية والعروبة من جانب آخر. وقد اجتهد الاستعمار البريطاني في عزل هذه المنطقة من المؤثرات العربية/الإسلامية.

لم يتم اجماع بين الباحثين حول مصطلح "النوبا" أو "النُّوبة" حيث تضم عددا من المجموعات السلالية. وقد استطاع باحث اللغات البريطاني (رولاند استيفنسن) من دراسته للمنطقة والتي استمرت لثلاثة عقود من تحديد أكثر من (٥٠) لغة ولهجة (رطانة) متقاربة تنتمي إلى (١٠) مجموعات رئيسية تضم كل منها مجموعة من القبائل التي تتشابه في موروثاتها ولغاتها.[٣٣] وقد أشار العديد من الدارسين إلى أن مصطلح (النوبة) يُعتبر تصنيفا غربيا أُستخدم لوصف كل سكان منطقة الجبال باعتبارهم "أفارقة" (زنوجاً) في مقابل قبائل البقارة (العرب). ولكن عندما يستخدم النُوبة هذا الاسم لوصف أنفسهم فإنهم يستخدمونه بشكل مختلف يتعلق فقط بإظهار ذاتيتهم وهويتهم بين المجموعات الأخرى. ويعتقد البعض الآخر أنهم يرتبطون عرقيا بمجموعات في غرب أفريقيا؛[٣٤] وآخرون يرجِعون أصولهم إلى إنهيار مملكة كوش في شمال السودان وتفرق مجموعاتها السكانية في جميع أنحاء البلاد بما فيها جبال النوبة. بل يؤكد باحث ينتمي لإثنية النوبة أنهم "أحفاد تهراقا وبعانخي، وأنهم ينحدرون من صلب الحضارة النيلية التي قامت خلال العقد التاسع قبل ميلاد المسيح". بينما يذهب باحث ينتمي إلى قبيلة الشلك الجنوبية (د. والتر كوانيجوك) إلى أن منطقة جنوب

---

32 جلال تاور، المصدرالسابق، ص ٥٠.

33 S. Nadel, An Anthropological Study of the Hill Tribes in Kordofan, Oxford University Press, UK, 1947 (see footnote no.6).

34 M. Barbour, The Republic of the Sudan, a regional geography, ULP, London, UK, 1961, p. 82.
في: محمد سليمان محمد، المصدر السابق، ص ٢٠٦.

كردفان كانت تحت حكم السلطان الروحي والسياسي (رث) لقبيلة الشلك واعتبرها امتداداً عرقياً وثقافياً لها، وبذلك يدلل على تبعيتها تاريخياً إلى جنوب السودان.[٣٥]

يقول المؤرخون أن قبائل البقارة (العربية)، وهي عرب رُحّل، والتي كانت تجوب سهول ولايات شمال كردفان وغرب دارفور، بدأت في العام ١٨٠٠ التقدم إلى أودية جبال النوبة بحثا عن المياه والمرعى لحيواناتهم المتزايدة. وتزامن قدومهم مع بداية غزوات الاسترقاق. ويُقال أن قبائل البقارة اقتسمت السهول فيما بينها وأجبرت قبائل النوبة على اللجوء إلى أعالي الجبال. وبمرور الزمن صار جزء كبيرا من أراضي النوبة من نصيب الحوازمة، إحدى قبائل البقارة.[٣٦] لكن تميزت علاقة البقارة بالنوبة بحملات الاسترقاق الشرسة والتي تفاقمت إبان الحكم العثماني (التركية) والتي بدأت باستيلاء حكام الخديوية المصرية على السودان في عام ١٨٢١م. ولقد قام حكام كردفان من قبل السلطات الإستعمارية بشن العديد من الحملات العسكرية على جبال النوبة بحثا عن الذهب في جبال شيبون ولجلب العبيد، لكنهم لم يبذلوا أية محاولات جادة لحكم المنطقة مباشرة. وقد وصل عدد العبيد الذين تم جلبهم من تلك المناطق في عام ٢٠٠ ألف في عام ١٨٣٩م. وذكر أحد الرحالة بأن ما يتراوح ما بين ١٠ – ٢٠ ألفاً من المخطوفين من منطقة الجبال كان يُعرض سنوياً سوق مدينة الأُبيِّض عاصمة كردفان.[٣٧]

وقد جلبت الدولة المهدية في ثمانينات القرن التاسع عشر متاعب جديدة للنوبة. فلقد أيّد بعضهم الإمام محمد أحمد المهدي لاعتقادهم أنه يقود المسلمين إلى الخلاص من عذابهم، وبعض آخر قاومه. ولقد قُدِّر لهذا الاختلاف في السلوك تجاه دعوة المهدي أن يُعتبر من خصائص سياسات الحكومات المركزية المتعاقبة تجاه النوبة في المستقبل، وذلك بتقسيمهم إلى فئتين: فئة متمردة على السلطة وفئة أخرى صديقة لها. وبعد وفاة المهدي أرسل الخليفة عبد الله التعايشي حملة عسكرية بقيادة حمدان أبو عننجة والنور عنقرة (١٨٨٦، ١٨٨٧)، وتجريدة بقيادة عبد الباقي الوكيل (١٨٩٠) وأخرى بقيادة إبراهيم الخليل (١٨٩١) لإخضاع سكان المنطقة. فلقي الآلاف من النوبة حتفهم بينما تم استرقاق أعداد كبيرة منهم وتم الترحيل القسري لآلاف أخرى

---

35 المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

36 Anglo-Egyptian Sudan Handbook Series: Kordofan and the region to the west of the White Nile, Sudan Intelligence Report, January 1912.

37 A. Marsot, Egypt in the Region of Mohammad Ali, Cambridge, UK, 1984, p. 127.
في: محمد سليمان، المصدر السابق، ص ٢٠٧

إلى مدينة امدرمان (عاصمة الدولة المهدية). لقد كانت ممارسات جنرالات الدولة المهدوية (١٨٨٤ – ١٨٩٨) ضد سكان المنطقة ذات آثار وخيمة. ومن سخرية القدر وبعد قرن من الزمان أعاد التاريخ تكرار المأساة (١٩٨٦ – ١٩٨٩) وجد سكان المنطقة أنفسهم يعانون من سياسات حفيد المهدي، الصادق المهدي،[٣٨] الذي كان رئيسا للوزراء في السودان في تلك الفترة.

حاولت الإدارة الاستعمارية البريطانية أن توقف آثار الزحف العربي نحو المنطقة مستجيبة لضغوط المؤسسات التبشيرية المسيحية متذرعة بحجة الحفاظ على الأمن وحماية المجتمعات المحلية من السخرة والاستغلال فأعلنت في العام ١٩٣٢ منطقة الجبال منطقة مغلقة منع سكانها من دخول شمال السودان (العرب والمسلمين) إلا بإذن خاص، لكن في عام ١٩٤٩[٣٩] تم إلغاء هذه السياسة (وهي ذات السياسة التي طبقتها الإدارة البريطانية على جنوب السودان لمنع الأسلمة والتعريب). بعد ذلك التاريخ، خاصة بعد الاستقلال في ١٩٥٦، بدأ النوبة في النزول من الأماكن الحصينة في قمم الجبال إلى السهول لممارسة الزراعة ولرغبتهم في الاستقرار في المناطق السهلية. هذا التأقلم دعمته رغبة الحكومة المركزية في إعادة توطين النوبة في السهول القريبة من مراكزها العسكرية بهدف إقامة شبكة إدارية فعالة لجمع الضرائب وفرض سيطرة الدولة التي أنهكتها المقاومة العنيدة للنوبة ضد النظام في الخرطوم. وأتاح ذلك أيضاً دائرة التفاعل بينهم ومحيطهم الجغرافي والبشري، وتوسع التعليم الحكومي الذي لم يدخل المنطقة إلا منذ العام ١٩٤٠ كما تحسنت الخدمات في المنطقة نسبياً – لكن دون المطلوب.

كان النوبة منذ الاستقلال يشعرون بالتهميش وإهمال الحكومة المركزية في الخرطوم لمنطقتهم التي ظلت تعاني من الفقر والتخلف. لذلك بدأوا ينظمون مطالبهم عبر مؤسسات نقابية مثل اتحاد جبال النوبة منذ ستينات القرن العشرين وقد شارك في بعض الانتخابات التشريعية ودخل منهم ممثلون في البرلمان. كما يظلوا عبر الحكومات الوطنية المختلفة ينادون برفع الظلم عنهم وتمثيلهم في المركز. واستمرت المطالبة في فترة حكومة الترابي/البشير (١٩٨٩ – ). وقد كان ممثلوهم في البرلمان يرددون المظالم وأنهم تمثيلهم في الحكومة

38 للتفاصيل حول مأساة أبناء جبال النوبة أنظر: تقرير منظمة أفريكا ووتش عن الوضع في جبال النوبة الصادر في عام ١٩٨٨ وفيه رصد لمعانة النوبة في الفترة من ١٩٨٥- ١٩٨٨.

39 أحمد عبد الرحيم نصر، "الإدارة البريطانية والتبشير الإسلامي والمسيحي في السودان"، مجلة الدراسات السودانية،العدد(٢)، المجلد ٣، يونيو ١٩٧٣، في: محمد سليمان محمد، المصدر السابق، ص ٢١٤.

شكلي ومحدود وهامشي وأن الوزارات المركزية التي كانت تُمنح لهم – وزارات لعب وحيوانات – على حد تعبيرهم (يقصدون وزارة الرياضة ووزارة الثروة الحيوانية).

كما أشارت هذه الورقة سابقا أن النوبة كانوا وثنيين في الأصل ثم تحولت المنطقة لسباق بين التبشير المسيحي والدعوة الإسلامية. مع ملاحظة زيادة نشاط الدعوة الإسلامية في فترة حكومة الإنقاذ (حكومة البشير). وقد تعرضت المنطقة إلى حملة تبشيرية إسلامية مكثفة على أيدي الإداريين الحكوميين والطرق الصوفية وبتأثير فئات الجلابة (التجار الشماليين) قادت إلى انتشاره بشكل غير متناسق ليشمل حوالي ٧٥% من سكان المنطقة.[٤٠] وهنالك اليوم مجموعات إسلامية تتركز في المنطقة الشرقية حول محور (العباسية–تقلي)، وأجزاء واسعة من المنطقة الشمالية والغربية (الدلنج ولقاوة)، وفي الجزء الشرقي من المنطقة الجنوبية (تلودي، كالوقي، الليري) وفي الأجزاء الغربية من المنطقة الجنوبية (الميري). كما توجد أقلية مسيحية (١٢%) نتيجة للحملات التبشيرية التي قادها القس الإيطالي الكاثوليكي دانيال كمبوني منذ العام ١٨٦٤.[٤١] ويتركز أتباع الكنيسة اليوم في المنطقة الوسطى حول محور جبال الأطورو–الليري ومحور تيرا–المورو. بينما توجد عشائر أخرى في كل أنحاء المنطقة ما زالت تتمسك بموروثاتها وعقائدها الأفريقية، مثل الكجور[٤٢]. وفي الأسرة الواحدة تتعايش عدة أديان – حيث تجد أحد أفراد الأسرة مسلم وآخر مسيحي وثالث وثني يعيشون في تسامح كما القبيلة كلها لا تشكل المعتقدات أية مصدر للنزاع بينهم. بل قد تجد مسلم يمارس أويؤمن بالكجور. كذلك تعايشت قبائل النوبة سلميا مع القبائل العربية التي تسكن معهم في المنطقة مثل قبيلية الحوازمة (إحدى قبائل عرب البقارة). وبالتالي يبدو أن سياسات الحكومة المركزية هي السبب في التمرد على أساس إثني.

لقد كانت نقطة التحول النوعية في مطلع العام ١٩٨٤ بانضمام مجموعة من السياسيين والمثقفين من مناطق الجبال المختلفة لمعسكرات الحركة الشعبية لتحرير السودان (حركة جون قرنق الجنوبية المتمردة على الخرطوم منذ عام ١٩٨٣) للتدريب وتكوينهم قيادة سياسية وعسكرية على رأسها يوسف كوة مكي (تُوفي) ودانيال كودي أنجلو وإسماعيل خميس جلاب. وقد كانوا ينادون بوحدة السودان في إطار التوزيع العادل

40 محمد سليمان محمد، المصدرالسابق، ص ٢١٥.
41 المصدر نفسه،ص ٢١٥.
42 الكجور تعني الروح أو القدرة الخارقة التي تتقمص الإنسان

للثروة واحترام الكيانات والثقافات الأخرى.[٤٣] قام جيش تحرير السودان بأول معركة منظمة في جبال النوبة في في يوليو ١٩٨٧ بعد دخول كتيبة البركان إلى المنطقة عبر طابولي وزحفها إلى محور سرف جاموس–أم دورين في منطقة جبال المورو. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت منطقة جبال النوبة جزء من التمرد وجزء من الحركة الشعبية وجزء من الحرب الدائرة. ولم تتوقف الحرب في تلك المنطقة حتى الآن. والملاحظ أن أن أبناء النوبة لم ينضموا للتمرد وللحركة الشعبية على أساس ديني، فهم ينتمون إلى الإسلام والمسيحية. بل على أساس منطلقات إثنية/عنصرية.

فعلى الرغم من أن منطقة جبال النوبة، من ناحية جغرافية لا تقع في جنوب السودان، بل تتبع إدارياً إلى ولاية جنوب كردفان، إلا أن هوية سكان المنطقة (النوبة) – ذوو الملامح الزنجية وديانتهم المسيحية (جزئياً) ولغتهم غير العربية دفعت بالحركة الشعبية لتحرير السودان إلى استقطابهم إلى حركتها. وقد امتدت الحرب الأهلية إلى هذه المنطقة المتخلفة أصلاً حيث كانت أطروحة الحركة تركز على أنها من المناطق المهمشة، إضافة إلى منطقة الأنقسنا في النيل الأزرق (إلى الجنوب الشرقي) بذات المبررات التي ترتكز على بُعد الهوية ومنطق التهميش. ترى حركة تحرير الشعب السوداني أن منطقة النوبة إقليم معزول وتعتقد أنه "تعرض لأبشع عمليات انتهاك حقوق الإنسان brutal human rights abuse من جانب الحكومة السودانية في محاولة منها لاجتثاث الهوية النوبية."[٤٤] وقد سيطرت الحركة في فترة من الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين على مناطق كثيرة في جبال النوبة خاصة المنطقة التي تقع إلى الجنوب والشرق من طريق كادقلي– هيبان. وتقول الحركة أن سكان المنطقة تعرضوا لاضطهاد مستمر وقد وحَّد هذا الاضطهاد بين النوبة مسلمين ومسيحيين حيث جمعتهم قضية (أو قضايا) مشتركة هي الظلم والاضطهاد والتهميش.

إذن النشاط التبشيري واللغة الإنجليزية والملامح الزنجية والشعور بالتهميش كلها عوامل أدت إلى بلورة عامل الهوية الذي جعل النوبة أقرب – وجدانياً وعقلياً – إلى الجنوب من الشمال. نتج عن ذلك تعقيد علاقة هذه المنطقة بالحكومة المركزية حيث تمرد زعيم النوبة الحالي، عبد العزيز الحلو، على حكومة المشير البشير بعد أن فشل في انتخابات حاكم الولاية في عام ٢٠١١ التي فاز فيها مرشح حزب البشير (المؤتمرالوطني)؛ وما زالت الحرب تدور في الولاية بدعم من الحركة الشعبية الحاكمة في دولة الجنوب.

---

43 صحيفة القوات المسلحة، الخرطوم: ١٩٨٩/١٢/٢٧. في: محمد سليمان، المصدر السابق، ص ٢١٥

44 Marc Nikkel, op. cit., p. 4.

## ٣. الأقباط في السودان:

الأقباط هم سكان مصر قبل الفتح الإسلامي عام ٦٤٠م، وترجع التسمية إلى كلمة "قبط" التي أطلقها العرب على مصر في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام. ويرتبط الأقباط مع السودان بعلاقة التجاور المكاني، وعلاقة الثقافة المشتركة، وعلاقة التأثير – على الأقل في ما يخص الجزء الشمالي من السودان. وفي العصر المسيحي جاءت الديانة المسيحية إلى مصر أولاً، ثم وفدت منها إلى السودان. وقامت الكنيسة القبطية بدور كبير في تأصيل هذه الدعوة ونشرها حتى استقرت تماما في وجدان الشعب النوبي. وتبع ذلك أن أصبحت ممالك النوبة المسيحية ملاذا يستجير به الأقباط وأتباعهم باعتبار الأب الروحي للكنيسة النوبية.[٤٥]

لكن تدهورت علاقة الأقباط بالسودان بعد أن اجتاح العثمانيون "المماليك" بلاد النوبة وطاردوا المسيحية فيها بغير هوادة حتى اضطر مَن أراد الاحتفاظ بدينه الهرب؛ وبقي السودان خاليا من أي مظهر للمسيحية فترة قرنين من الزمان هما القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، وإن استمر الأثر الثقافي باقيا حتى اليوم. فما يزال أهالي الجزء الأقصى من شمال السودان يستخدمون الشهور القبطية في تتبع حركة النيل ارتفاعا وانخفاضا، وما تزال بعض الزخارف التي تزين البيوت ذات دلالات مسيحية أو فرعونية (ويكفي وجود عادة الخفاض الفرعوني للإناث حتى الآن في السودان).

مع حملة علي باشا في السودان (١٨٢١) بدأت صفحة جديدة في العلاقة بين الأقباط والسودان وذلك عندما شرع في تأسيس الإدارة الحكومية الجديدة استعان بعدد كبير من الأقباط. ومع هؤلاء الموظفين العموميين حضر آخرون للعمل في التجارة والصناعة والزراعة وغيرها من الأنشطة. في فترة المهدية تم تدمير عدد من الكنائس بحسبانها من بقايا التركية. ومع ذلك تعايش الأقباط مع غيرهم من الناس في ود وسلام – سواء منهم مَن أشهر إسلامه أو بقي على دينه. وكان لهم دور رائد في الدولة المهدية في رعاية بيت المال وفي التعليم، وأقام الأقباط المسلمون خلاوى تدريس القرآن مثل "خلوة بولس" على شاطئ النيل وكان يقوم بالإنفاق عليها ودفع راتب الفقيه الذي كان يدرِّس بها. وفي تلك الفترة – نهاية القرن التاسع عشر

[45] نجيب يسي تاوضروس وزاهر يعقوب عبد السيد، رحلة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في أرض كوش (السودان) من القرن التاسع عشر إلى القرن الحادي والعشرين، الخرطوم: مركز الإشعاع، إيبارشية الخرطوم والجنوب وتوابعها، ٢٠٠٧، ص ص ١٤٦ – ١٤٧.

وبداية القرن العشرين – تلقى العديد من الأقباط علوم الدين الإسلامي في الخلاوى إلى جانب تعلم ديانتهم المسيحية.[٤٦]

في فترة الحكم الثنائي (البريطاني/المصري: ١٨٩٩ – ١٩٥٦) شرع الأقباط في وضع أسس حركة ثقافية واجتماعية واقتصادية متطورة. وكان الأقباط أول من طبع الصحف والمجلات في السودان، وأسسوا الكلية القبطية للبنين في عام ١٩١٩ والكلية القبطية للبنات في عام ١٩٢٤، وكانت كلتا المدرستين مفتوحتين لجميع أبناء السودان، وأسهمتا في تأهيل الرعيل الأول من المتعلمين. وكان للأقباط دور كبير في تنشيط حركة التبادل التجاري بين مصر والسودان، وأقاموا صناعات خفيفة في السودان.[٤٧]

وعندما جاء الحكم الوطني عام ١٩٥٦ شارك الأقباط في أجهزته المختلفة المنتخبة والمعينة، وتقلدوا المناصب القيادية كوزراء وقادة في الخدمة المدنية والقضاء وبرزوا في كافة مجالات الخدمات. وفي كل ذلك نالوا نصيبهم سلبا وإيجابا كغيرهم من السودانيين في ظل كل الأنظمة الديمقراطية والشمولية، المدنية والعسكرية، العلمانية والدينية.

لقد أخذ الأقباط الكثير عن السودان: أخذوا ثروة جمعوها بجهدهم وعلمهم، ومكانة اجتماعية متميزة يشهد بها حضورهم الفاعل في كافة التجمعات العلمية والفنية والفئوية. لكنهم أيضا تشربوا الروح القبلية السائدة في السودان. وتعلموا أن ينظموا أنفسهم كواحدة من المجموعات العرقية، والتي يذخر بها هذا البلد؛ فأقاموا المؤسسات الاجتماعية والثقافية التي تجمعهم والتي لا تخلو منها واحدة من المدن الكبرى وهو أمر لا نجد له مثيل في بلدهم الأصلي مصر ولا في بلاد المهجر مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا واستراليا...[٤٨] و"لا نكاد نسمع عن تلاحم اجتماعي وانساني بين أبناء الطائفة مثلما يحدث في السودان. نحن نعيش في حميمية مع المجتمع السوداني."[٤٩]

---

46 نجيب يسي وزاهر يعقوب، المصدر السابق، ص ص ١٤٩ – ١٥٠.

47 المصدر نفسه، ص ١٥١

48 يسي وزاهر، المصدرالسابق، ص ١٥٢

49 الأستاذ عبد المسيح زخاري، عضو مجلس إدارة الكنيسة القبطية الأرذوكسية بأمدرمان، السودان، في حديث للكاتب، الخرطوم، ٢٠١٢/٦/٢٩

وبالمقابل فقد استوعب المجتمع السوداني المؤسسات القبطية واعتبرها ظاهرة طبيعية، ولم نجد فرقا بين النادي القبطي والنادي النوبي، أو بين المكتبة القبطية ونادي أبناء حلفا. إن الشعور العام هنا هو من حق كل مجموعة عرقية أو دينية أن تعبر عن نفسها.[٥٠]

تجمّع الأقباط بأعداد كبيرة في أمدرمان – خاصة حي المسالمة – كما لهم تجمعات وكنائس كبرى في عدد من المدن السودانية مثل بورسودان والأبيض ومدني والقضارف وكوستي. وهناك عائلات قبطية مشهورة ولها اسهام في العمل العام وأعمال الخير والمؤسسات الاجتماعية المختلفة مثل نادي المريخ ونادي الهلال. فهناك أحفاد تاوضروس السويسري، وشغل أحد أفراد العائلة منصب ملحق تجاري في سفارة السودان في لندن، وساهموا في بناء مستشفى الخرطوم التعليمي ومدرسة وادي سيدنا الثانوية، وفي تأسيس الخطوط الجوية السودانية. وهناك تادرس كبير مفتشي المالية في عهد التركية وابنه عبد المسيح الذي كان عضوا في المحاكم الأهلية في فترة الحكم الثنائي وعضوا في مجلس الشيوخ في أول حكومة وطنية (حكومة السيد اسماعيل الأزهري). وهناك عائلة ميخائيل جريس وبشارة ميخائيل وعائلة منصور خليل، وعائلة إبراهيم بيك خليل وعائلة اسكندريان (وهم من أصل أرمني لكنهم كانوا سودانيين مسيحيين وأعضاء بارزين في حزب الأمة). وهناك عائلة فانوس متى ومن سلالتها الدكتور صفوت صبحي فانوس أستاذ العلوم السياسية بجامعة الخرطوم، وهناك عائلة سكلا أسخيرون والتي انحدر منها هنري رياض سكلا الذي شغل منصب قاضي للمحكمة العليا بالإضافة إلى مؤلفاته القانونية وترجماته للعديد من الكتب الأجنبية. وهناك عائلة اسحاق جرجس (منها أنجيل اسحاق أول فتاة سودانية تلتحق بجامعة الخرطوم) وهناك العديد من العلماء والأساتذة في جامعة الخرطوم ومجالات البنوك والتجارة والصناعة وغيرها..

على المستوى الرسمي هناك احترام من الحكومة للأقباط حيث يتم منحهم إجازات للعطلات الخاصة بأعيادهم، ويشارك المسلمون اخوانهم الأقباط السودانيين في أعيادهم بالتوقف عن العمل في عطلات الأقباط (مثل عيد الكريسماس). وكذلك يقيم الأساقفة حفل إفطار رمضاني لأعضاء الحكومة السودانية، وترد الحكومة بدعوة رجال الدين المسيحي لمناسبات القصر الجمهوري المختلفة. وهناك توادد وتراحم بين الأقباط والمسلمين في السودان بصورة يندر وجودها في أي مكان آخر في العالم فقد طغت القيم السودانية على كل

50 يسي زاهر المصدر السابق، ص ١٥٢

الاختلافات الدينية والطائفية. لذلك لا يمكن للمراقب أن يتوقع اية انفجار لأعمال عنف أو نزاعات بين المسلمين والأقباط في السودان.

## خاتمــة:

في السودان قد أخذ التغلغل العربي بعداً سلطوياً حاملاً قيماً ومعتقدات سادت على حساب الآخر. وتميز الوجود العربي بقوة الدفع التي تتمثل في النسق الحضاري المتكامل من لغة ودين وثقافة في اتساق مكنها من التجانس والقوة لتربط فسيفساء عالية التنوع. هذا التنوع الكثيف في الهويات (multiplicity of identities) تمازج في السودان عبر فترة زمنية طويلة فكان النتاج حالة فريدة من مركب الهويات والإثنيات (ethnic multiplicity) وضعت الدولة السودانية على مفترق الطرق: إما أن يتم نسجه إيجابياً من خلال عملية اندماج اجتماعي في بوتقة انصهار، وإلا فإن هذا التنوع الكبير في العرقيات والهويات والدين سوف يضعف الدولة ويهدد التماسك الوطني.

إن الفوارق الإثنية في الحالة السودانية تحمل في ثناياها الفوارق الثقافية، الدينية والاقتصادية. فالعناصر الزنجية غير العربية هي التي يتركز فيها الوجود غير الإسلامي مسيحياً كان أو وثنياً. كما أن هذه العناصر تحتل في غالبها هامش الحياة الاقتصادية، وهي كذلك ضحية التراتيب الاجتماعية التي أفرزتها الظروف التاريخية بما في ذلك حركة الرق.[٥١]

هذا يعني أنه في السودان تحمل الإثنية في ثناياها الاختلافات، الثقافية والاقتصادية كما ترتبط بالهوية. هذا بالإضافة إلى التعقيدات التاريخية التي اكتنفت العلاقات بين الإثنيات، خاصة في عصر الاسترقاق، مما جعل التناقض الإثني تناقضاً مزدوجاً يحمل في أحشائه أبعاداً كثيرة. وقد أفرز هذا الواقع أوضاعاً ومفاهيم جديدة مثل "الإستعلاء الإثنيى"، و"الطبقية العرقية" وما ارتبط بهما من تهميش وحرمان تنموي. كما أن هذا الاستقطاب الإثني الثقافي أفرز وعياً لدى قطاعات واسعة بحقيقة السودان التي حجبها الخطاب السياسي الثقافي العروبي الإسلاموي. لذلك حدث تشويه للواقع السوداني وللعلاقة بين مكونات

---

[٥١] مكي علي بلايل، **الديمقراطية والإثنية في السودان**، أوراق ندوة التعدد الإثني في السودان (تحرير حيدر إبراهيم علي)، أوراق مختارة من ندوة التعدد الإثني والديمقراطية في السودان، الخرطوم: مركز الدراسات السودانية، مايو ٢٠٠٢، ص ١٠.

المجتمع السوداني من خلال أثننة السياسة وتسييس الإثنية؛ كما ارتبط الأمر أيضا بصراع الهويات. هذا مع ملاحظة أن الدين لم يشكل سببا للصراع في السودان بل تم تسييسه من جانب النخبة في الشمال والجنوب في سياق الحرب بين الطرفين. لكن يصدق القول أيضا أن أُس المشكل في السودان ليس التنوع بل الفشل في إدارة التنوع. السودان من ناحية مجتمع متسامح ولكن تقع على عاتق النخبة الحاكمة أن تقيم الدولة على أساس العدل والقانون والحكم الرشيد لكي تؤسس لوحدة مستدامة ودولة مستقرة. وعموماً يمكن القول الأقليات في السودان لا تعاني على أساس ديني، بل إثني.